مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب
Issn:2572-0058/E-issn:1969-2676
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/485

المجلد: 08 العدد: 01 جانفي (2024) ص 173 / 190

الديستوبيا في الرواية العربية المعاصرة

قراءة في رواية "في البدء كانت الكلمة" لأمل بوشارب

Dystopia in the contemporary Arabic novel

A reading of the novel "In the beginning was the word" by Amal Bouchareb

إبراهيم بوخالفة*

المركز الجامعي مرسلي عبد الله بتيبازة

Boukhalfa.brahim@gmail.com

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2023/01./01
تاريخ القبول:
2024 / 01 /15

الكلمات المفتاحية:
- ✓ الديستوبيا؛
- ✓ الحكومة الفاسدة؛
- ✓ الرواية الديستوبية

الملخص:

كانت الرواية الديستوبية في الغرب، استجابة لفلسفات ما بعد الحداثيّة، ذات النزعة التشاؤميّة والرؤية العدميّة للوجود، في ظلّ الرأسماليّة المتوحشة وأنظمة الاستبداد السياسي. وقد جات لتفنّد الفكر اليوتوبي لفلسفات الحداثة، التي ورثت مشروعا تنويريا يوتوبيا عن الفلسفة الإنسانويّة. ومع انهيار السرديات الكبرى، تحوّل الفكر الغربي إلى الفكر النقيض لليوتوبيا، وقد انعكس هذا التحول على مستوى الرواية. ثمّ إنّ الرواية الديستوبية قد تم ترحيلها إلى الثقافة العربية بحكم الانفتاح، وصرنا نقرأ روايات ديستوبية تعبر عن أزمات حادة في المجتمعات العربية التي عرفت أنظمة استبداديّة حرمت شعوبها الكثير من الخير. من بين هذه الروايات ندرس في هذا المقال رواية "في البدء كانت الكلمة: لأمل بوشارب. وتعبر هذه الرواية عن حالة اليأس والبؤس والشقاء التي وصل إليها المجتمع الجزائري عقب فشل مشروع التحول السلمي إلى الديمقراطيّة.

Article info

Received *01/ 01 / 2023*
Accepted

Abstract : (

The dystopian novel in the West was a response to postmodern philosophies, with a pessimistic tendency and a nihilistic vision of existence, in light of savage capitalism and regimes of political tyranny.

*المؤلف المرسل

It came to refute the utopian thought of the philosophies of modernity, which inherited an enlightening utopian project from humanist philosophy. With the collapse of the grand narratives, Western thought turned to the antithesis of utopia, and this transformation was reflected at the level of the novel. Then, the dystopian novel has been transferred to Arab culture by virtue of opennessEnter your abstract here (an abstract is a brief, comprehensive summary of the contents of the article). Enter your abstract here (an abstract is a brief, comprehensive summary of the contents of the article) .And we are reading dystopian novels that express severe crises in Arab societies that have known tyrannical regimes that deprived their people of much good. Among these novels, we study in this article the novel "In the Beginning Was the Word: by Amal Bouchareb." This novel expresses the state of despair, misery, and misery that Algerian society reached after the failure of the project of peaceful transition to democracy.

15/ 01/ 2024

Keywords:

- ✓ *dystopia; corrupt government; The dystopian novel..*

. مقدمة:

في الغرب الحديث أفضى انهيار السّرديّات الكبرى إلى التّشكيك في كلّ يوتوبيّات الحداثة وفي كلّ الفلسفات الإنسانويّة التي تزعمُ الأنوار أنها تسعى لتنزيلها على أرض الواقع. فقد أشرقت سماء أوروبا في القرن التاسع عشر بالفلسفة الماركسيّة التي تبدي الكثير من التّعاطف مع الشرط الإنساني، وتدافع على المسحوقين والمهمّشين. غير أنّها لا ترى مانعا من مساندة الاستعمار الغربي لإفريقيا والعالم الإسلامي وبلدان آسيا. فكلّ المناطق غير الأوروبيّة يجبُ أن يمرّ عليها الغرب بأنفاسه من أجل إخراجها من سباتها الذي طال، ومن أنظمتها المستبدّة. هكذا يبرّر كارل ماركس الاستعمار الإنجليزي للهند والفرنسي لإفريقيا وفقا لمنطق إنسانوي عجيب. طوّر فلاسفة الأنوار ما سُمّي آنذاك بالمذهب الإنسانوي، وممّا وعد به فلاسفة الأنوار، هو قيادة العالم نحو مجتمع إنساني خالٍ من الكراهيّة ومن التّمييز العنصري، ومن مقتضيات هذا المذهب هو أن البشر كلهم يتساوون من حيثُ الكرامة الإنسانيّة ولا يحقّ التّمييز بين الشّعوب على أساس العرق أو الدّيانة. إنّ قيم الإنسان الجوهريّة المحتفى بها في كلّ الثقافات كفيلة بإزالة كلّ أسباب الاحتراب والكراهية، والتّمركز حول الذّات. غير أنّ الحكومات الغربيّة لم تكن تنصت لهذه الخطابات الإنسانويّة، وكانت تعمل على التوسّع باتّجاه المناطق النائيّة من أجل إلحاقها بالمركز، واحتلالها تحت ذريعة الرسالة التّحضيريّة. وأفضى ذلك إلى احتلال العرب وتدمير شعوبهم وثقافاتهم، ثم الانسحاب لإعادة الانتشار. وبما أنّ الاستعمار ليس من عادته أن يتخلّى عن أهدافه، ولكنه يُغيرُ أدوات تحقيق هذه الأهداف، ومن أهمّها السيطرةُ على المستعمرات القديمة وإبقاؤها تحت الوصاية الغربيّة، ومنع كلّ أشكال المقاومة .

وهكذا وجدت الدّول العربيّة نفسها أمام استقلال شكلي، لا تتحكّمُ في قراراتها السياسيّة ولا في ثرواتها، وقد كبّلها الغرب بمنظّمات دوليّة واتفاقيات ومعاهدات عرقلتْ سيادتها. يخطرُ بالبال في هذا السياق مقولة كارل ماركس الشهيرة والتي كتبها في مقالة برومير الثامن عشر للويس بونابارت: "إنهم غير قادرين على تمثيل أنفسهم، يجب أن يُمَثَّلوا". لم يمنع انسحاب الغرب من مستعمراته من التواصل الثقافي مع مستعمر الأمس. لقد دخل المثقفون العرب في عمليات مثاقفة متعدّدة الأشكال مع الغرب من أجل تحديث مجتمعاتهم، والنّهوض بالعقل العربي الذي كان لا يزال يعاني من عزلته التي فرضها على نفسه بدافع المحافظة على الهوية. لقد عمل هؤلاء الوسطاء على ترحيل قيم الغرب وعاداته وأنماط عيشه، من خلال الاحتكاك

المباشر والترجمات، واستنساخ تجارب الأوروبيين في مجال الإنتاج الثقافي بكلّ طبقاته. ومن بين ما تمّ ترحيله نذكر الإنتاج الروائي والقصصي والمسرحي والسينمائي، وهي الأجناس الأدبيّة التي يراد لها أن تتحوّل إلى أداة تغيير للأفكار والعقليّات القديمة. وعلى الصّعيد الاجتماعي بدأت الشّعوب العربيّة تتضرّر من الضائقة الاقتصاديّة ومن الحجر على الأفكار والتوجّهات. فقد كانت الأنظمة السياسيّة، وبحجة المحافظة على الاستقرار السياسي تقمع الكثير من الحريّات السياسيّة، ومن المعارضة للنظام ..

وفي هذه الدراسة سنتحرّى نوعا من الكتابة السرديّة الحديثة، والتي نحسبها من منتجات ما بعد الحداثة. إنّها الديستوبيا التي رُحّلتْ هي الأخرى من الغرب إلى الشرق .

لقد كانت للغرب خيباته وهزائمه الدّاخليّة التي أعقبت فشل مشروع التّنوير وسقوط الإنسان في الابتذال والتشيء. كما كان للعرب خيباتهم بسبب هزائمهم المتتالية، وعلى جميع الأصعدة. لم يستفد العرب من علاقاتهم مع الغرب إلاّ مزيدا من الإذلال والانكسار، والتبعيّة وعندما وصلت تناقضات المجتمعات العربيّة إلى حدودها القصوى تتالت الثورات على الأنظمة الرّسميّة، الأمر الذي أثار استفزاز الامبرياليّة العالميّة، ودفع بها إلى التدخّل لحماية وكلائها، وتحويل مسارات الثورة إلى وجهة خاطئة. وهكذا أجهضتْ مشاريع التّغيير، وعادت الأنظمة إلى وضعيّة التابع. وقد أثارت هذه الردّة إحباطا عميقا في الأوساط الشعبيّة والعالمة على حدٍّ سواء. ولقد رأينا أنّ الغرب يعلن الحرب على أيّ نظام حكم يسعى لتطبيق الدّيمقراطيّة، ويسعى من خلال وكلائه إلى إفشال كلّ مشاريع التنمية والدّيمقراطيّة. حصل هذا مع معظم الدّول العربيّة، ومن خلال أساليب متنوّعة، لا يعنينا ذكرها في هذه الورقة.

وهكذا لم تزدنا رياح الحداثة إلاّ بؤسا وشقاء، ولم نعد نثق في خطابات المؤسسة، ولم تعد تقنعنا حلول التنمية التلفيقيّة. كما أنّ مستويات الفقر ازدادت مع اشتداد خناق الامبريالية الغربيّة على الأنظمة. لقد حُرِمتْ الشّعوب العربيّة من ثرواتها، لأنّه يتمّ سرقتها من قبل الشركات العالميّة الكبرى. لقد أفضت هذه الوضعيّة إلى ظهور خطابٍ أدبي يوثّقُ هذه الأزمات، ويقوم بتمثيلها من خلال الانغماس وسط الفئات المنبوذة من المجتمع، للتّعبير عن انحطاط العالم، وابتذال القيم التي يصنعها الأقوياء في المجتمع من أجل تأبيد الأوضاع لصالح الفئات المهيمنة. في النّصف الثاني من القرن العشرين انتشر أدب الديستوبيا في الثقافة العربيّة تمثيلا لحالة الإحباط التي آل إليها الوضع الإنساني للشّعوب العربيّة. وسنحاول أن نحلّل إحدى أهمّ الروايات العربيّة التي تنتمي لهذا النوع من الأدب، والكشف ليس فقط عن جمالياته، بل عن أبعاده الثقافيّة والإيديولوجيّة .

ذاكرة المصطلح:

الديستوبيا أو أدب "المدينة الفاسدة"، "هو عالم وهمي ليس للخير فيه مكان، يحكمه الشر المطلق، ومن أبرز ملامحه "الخراب، والقتل والقمع والفقر والمرض، وهو يأتي في مقابل أدب اليوتوبيا" (فاطمة برجكاني، 2018، ص6) باختصار هو عالم يتجرد فيه الإنسان من إنسانيته يتحوّل فيه المجتمع إلى مجموعة من المسوخ تناحر بعضها بعضاً، ويكون البقاء للأقوى. إنّه العالم المضاد للعقل، حيثُ يغيب العقل و تنطق الغرائز وشهوة الجسد، ووهم السعادة. ليدخل البشر في حالة الجريمة ويفقدون مقوّمات العيش المشترك.

استخدم هذا المصطلح بوصفه نقيضا لمصطلح "يوتوبيا". وهو تحديدا أدب المدينة الفاسدة أو ديستوبيا أو عالم الواقع المرير .وأصل المصطلح باللّغة اليونانيّة المكان الخبيث الذي لا أثر فيه للخير. فالشر والظلم والرذيلة والفساد كلّ ذلك يمثّلُ اللّغة السائدة في تلك المدينة. يمكن القول أنّ الديستوبيا تعني "قصة تخييليّة تصفُ مجتمعا خياليّا منظما بطريقة تمنعُ أفراده من بلوغ السّعادة" (صبحي البستاني، 2021، ص5) بسبب أنظمة الحكم المستبدّة واستفحال الظلم الاجتماعي الذي لا يقف في وجهه شيء.

إنّها المدينة أو المجتمع الذي تتجمّع فيه كلّ أشكال الفساد البشري والانحراف والجريمة، في ظلّ الأنظمة الشموليّة والمستبدّة. وهي من هذه الناحية النقيض المطلق لمجتمع المدينة الفاضلة التي عبّر عنها أفلاطون في جمهوريّته المتخيّلة. وفي مثل هذا الأدب يتجرّدُ الإنسان من كلّ القيم الإيجابيّة التي تُستَمدُّ من الأديان ومن الأعراف وتقاليد الأسلاف. ويتحوّلُ إلى كائنٍ متوحّشٍ يتمرّد على الجميع ويقاتل الجميع، بدافع المصالح وغريزة البقاء للقوى، وليس للأصلح. وتُعدّ رواية 1984 لجورج أورويل، الصادرة سنة 1948، أولى هذا النمط من الروايات .

والملاحظ في رواية الديستوبيا، التي تعتمد على التخييل بشكلٍ أساسي، أنّ كلّ أجهزة الدولة تمنع زوال الشر، كما تمنع انبثاق الحقيقة والعدالة، وبالتالي، فإنّ الأفراد يتعذّرُ عليهم أن يحقّقوا السعادة في المجتمع الدّيستوبي. وهنا لا بدّ من ملاحظة علاقة هذا الفكر العدمي بروح العصر، حيثُ البداية الحقيقيّة لفكر ما بعد الحداثة العدمي.

إنّ انتقال هذا المصطلح إلى الثقافة العربيّة يعني من ضمن ما يعنيه، أنّ شروط تحقّقه متوفّرة، ولذلك نجده يحظى بمقروئيّة واسعة، ويثير الكثير من الحبر. إنّه يعبّر عن حالة انسداد أخلاقي وسياسي يتخبّط فيها المجتمع الذي يمارسُ هذا النّوع من الأدب كتابة وقراءة. وبالفعل، فإنّ الكثير من المجتمعات العربيّة بعد الاستقلال وقعت في ردّة أخلاقيّة وانفصلت عن مرجعياتها الحضاريّة، الأمر الذي أثار تفككا في المجتمع، وهو المناخ المناسب للجريمة والفساد السياسي.

دوافع ظهور الديستوبيا:

لا يمكننا بأيّ حالٍ من الأحوال إهمال العوامل الخارجيّة التي أدّتْ إلى ظهور أدب الديستوبيا في الوطن العربي. ومهما يكن، فإنّ عوامل نشأة هذا الأدب في الغرب وعند العرب متشابهة إلى حدّ التطابق أحيانا. فعندما نتحدّثُ عن عومل ظهور الرؤية المأساويّة في الرواية الغربيّة، أو رواية التمرّد أو الرواية الثوريّة، في الغرب، فلن يختلف الأمر كثيرا في حالة حديثنا عن ظهور ذلك النّوع من الأدب قي الثقافة العربيّة. ومن ناحية أخرى، فالرواية بوصفها جنسا أدبيّا ارتهن وجودها بظهور البورجوازيّة الغربيّة، لم تُعرف لدى العرب إلاّ من خلال عمليّات المثاقفة أثناء الاستعمار. فقد تمّ ترحيلها من خلال المحاكاة، والتقليد. وتمكّن هذا الجنس من أن يجد لنفسه احتفاء واسع النطاق لدى القارئ العربي. لنشهد بعد ذلك تراكمات نوعيّة للإنتاج الروائي، ومجاراة حثيثة للواقع العربي المأزوم والممزّق بفعل انخراطه في الشرط الامبريالي، والنظام الكولونيالي الذي فرضته القوى العظمى بدءا من النّصف الثاني من القرن العشرين .

وفي هذه الحقبة يجبُ البحث عن أزمة الوجود العربي التي أفرزت أدبا متمرّدا على العقل وعلى المجتمع الذي أنتجه، وعلى الثقافة التي تتخلّله. ذلك أنّ الوضع العربي كان يزداد سوءا مع نهاية القرن العشرين، والشعوب العربيّة كانت تزداد شقاء وتمزّقا. فالوعد بالتنوير والتّنمية لم يكن إلاّ خطابات مخاتلة، ومخادعة، دورها الفعلي هو إخفاء تناقضات المرحلة وخيبات السياسة وبؤس الكلمات. نحن نعيشُ في عالمٍ منحطٍّ، هجرته الفضيلة وتخلّى عنه العقل، وغابت العدالة. إنّنا لا ننفكُّ نردّد نداءات الاستغاثة، ونطالب بردّ الاعتبار، والالتفات إلى الذّات. فالمستعمر، لا يملك إلاّ وعودا بالتنمية لا تتحقّق. فهو يرفض ترحيل التكنولوجيا، ويشدّد الرقابة على مستعمراته القديمة لمنع سرديّات المقاومة من أن تنشأ، ولضمان التّرويج لسرديّات الامبراطوريّة. لا يزال النظام الكولونيالي متمكّنا من العالم، ولا يزال ينفردُ بتمثيل الحقيقة كما يراها هو. وفي ظل هذه الهيمنة الإيديولوجيّة لثقافة الاستعمار الجديد، انبثقت فئة من المثقّفين العرب ترفض الوضع الراهن، وتعملُ على خلق واقعٍ أكثر عدالة، من خلال ردّ الاعتبار للذّات العربيّة، وتمكينها من تمثيل نفسها. وكان من الطّبيعي أن تصطدم هذه الأصوات مع مصالح وكلاء الاستعمار، ليلجأ حرّاس الامبراطوريّة إلى قمع كلّ تلك الأصوات، وتغييبها، ومنع انتشارها حتّى لا تتحوّلَ إلى إنجيلٍ للفقراء والمسحوقين، والمهمّشين. غير أنّ هؤلاء المبدعين الذين انحازوا إلى مأساة الوطن، قرّروا أن يكابدوا كلّ تبعات المغامرة الروائية لتحرير الذّات، وخلق سرديّات المقاومة التي لا تُقهَرُ. من هنا ظهر أدب الثورة والتمرّد. وراح الرواة يشكّلون رؤية عبثيّة للوجود بسبب فضاعة العقوبات التي يرزحون تحتها، وبشاعة الأوضاع التي يكابدونها في سبيل حريّة الكلمة .

رافق الروائيّون المعذّبين في الأرض في سجونهم وفي معتقلاتهم، كما رافقوا البؤساء وهم يلتقطون رغيف يومهم من مزابل المدن، ومن بقايا موائد المتخمين. كما رافقوا بيوت الدّعارة حيثُ تركن المرأة المضطهدة، التي ألجأها الفقر إلى بيع جسدها، لتنعم ببعض ما يحتكره الأثرياء. وتشكّلت أنواعٌ أدبيّة تعبّر عن عمق المأساة التي تعيشها الأمّة العربيّة بعد الاستقلال السياسي الشكلي بدءا من النصف الثاني من القرن العشرين. ظهر الأدب الملتزم لدى الكتاب الماركسيين، من أمثال حنّا مينة، وغسان كنفاني والطّاهر وطار. كان الأدب التي كُتِب انطلاقا من مرجعيّة ماركسيّة يحمل في طبقاته السفلى وعيا بالانفراج وأملا في النّصر، يدغدغُ أفئدة المأزومين والمحرومين. كان ذلك في عصر الحداثة، حيثُ تهيمن السّرديّات الكبرى على الوعي العربي في فجر الاستقلال. غير أنّ ما بعد الحداثة، أفرجتْ عن وعيٍ شقيٍّ يعبّرُ عن عجز عربي عن الفعل. لقد أصيب العقل العربي بالخصاء، ولم يعد قادرا على إنتاج رؤيةٍ للخلاص، في ظلّ المجتمعات الشّموليّة التي تهيمنُ على الجسد وعلى العقل وتضبط مشاعر الناس بصرامة قاتلة .

أضحى الأديب منغمسا في حمأة المدينة الفاسدة التي غشيها الظلم والقنوط والفساد بكلّ صوره. في المدينة الفاسدة تُمارَسُ الدّعارة بشكلٍ علني، يباركها النّظام الرّسمي، ويُمارس القمار وتُروَّجُ المخدّرات واللواط. يخترق الإنسان كلّ التابوهات، ويهجرُ البيئة العائليّة، ويسخرُ من المجتمع القائم ومن قيمه ونظامه الثقافي. وتشكّلُ المدينة الفاسدة كونا مضادّا للمدينة الفاضلة، التي تَضبطُها معايير النظام الشمولي، وقيم المجتمعات الطّبقيّة، وأخلاقيّات أصحاب الثروات الطّائلة. لم يعد من معنى للروابط العائليّة، ولم يعد من وجود للمقدّسات، فالخير والجمال والحبّ والفضيلة، كلّ ذلك يتحوّل إلى الضدّ. ويصبح مثارا للسخرية. فالشرّ هو جوهر المدينة الفاسدة، ولا صوت إلاّ للقوّة وللغرائز البهيميّة. والمال يُكتَسبُ بكلّ السبل المتاحة. إنّ النظام الذي يسود المدينة الفاسدة هو أقرب إلى الطّبيعة منه إلى الثقافة. "الحكومة في المجتمعات الديستوبية هي أصل كل شر، وتحكم من خلال نظام فاشي مستبد، حيث تتحكم مجموعة من الناس في كل البشر عن طريق التكنولوجيا" (سلمى أبو زيد شتا العشري، 2020، ص8). كتب محمّد شكري رواية "الخبز الحافي"، وهي عبارة عن سيرة ذاتيّة، توثّق الوجود الإسباني في المغرب، مع الحماية الفرنسيّة المعلنة آنذاك. والرواية في مجملها إدانة للنظام الرسمي المتواطئ مع الكولونيالية الأوروبيّة. وأدب الديستوبيا في مجمله هو إدانة للأنظمة الشموليّة، التي تعتبرُ كلّ مواطنيها رعايا وتابعين، ليس متاحا لهم إلاّ أن يلتزموا بقانون القوي. فالقوّة هي التي تصنعُ الحقيقة وتفرضها على آخريها. الأنظمة الشموليّة تحوّلُ الشّعوب إلى أفواجٍ من التابعين، وتثبّتهم في غيرية ثقافيّة واجتماعيّة بشكلٍ أبدي. إنّ الثقافة التي تروجُ لها تلك الأنظمة تعمل على تنميط الإنسان العربي، ليتحوّل إلى مستهلك لمادة إعلاميّة تؤهّله للعبوديّة والتشيّء، وازدراء الذّات، وتفرض عليه البقاء على ولائه للنظام المهيمن.

ملامح الكتابة الديستوبية في رواية "في البدء كانت الكلمة" لأمل بوشارب:

رواية "في البدء كانت الكلمة" هي آخر إصدارات أمل بوشارب، بعد "ثابت الظلمة" و"سكرات نجمة". وأنا أجادلُ أنّها رواية ما بعد حداثيّة، باعتبار الحمولة الفكريّة التي تسكنها. ويمكن تصنيفها ضمن رواية الرعب، إذ أنّها تتقاطع معها في صدمة العرض الدرامي للضحيّة، ولكنها تختلف معها في التأويل السياسي للجريمة، وما يُحيط بها من أحداث جانبيّة، من شأنها تصعيد البعد العبثي، والملهاتي للسّرد .

تتضمّن الرواية أيضا إثراء لموضوعة الغيريّة، والهيمنة الذّكورية، والصراعات الإيديولوجيّة التي كانت تعصفُ بالأمّة الجزائريّة مع أواخر العشريّة الثانية من هذا القرن. تتزامن أحداثُ الرواية مع بداية الحراك السياسي الذي انطلق منذ عامين، ولا يزال إلى اليوم مستمرا، وإن كانت حرارته قد خبأت منذ الانتخابات الرئاسيّة التي أفرج عنها الحراك. تزامن هذا الحراك مع موجة اختطاف الأطفال الصغار، من أجل استئصال أعضائهم التناسليّة لأهداف مشبوهة. وتتخلل الحبكة السرديّة نشاطا مثيرا للجدل للتبشير، العلني وغير العلني. كلّ هذه الحيثيّات تضعُ نزاهة الحراك موضع التساؤل، خصوصا

مع ربط الأحداث التي تحصل في الدّاخل مع شخصيّات تتواجد خارج الوطن، على غرار "انغريد" و"هنادي" و"كايلا"، وتسعى للتسلل إلى الدّاخل عبر علاقات خفيّة مخابراتية. في هذه الدراسة سيكون محرق اهتمامنا دراسة ثلاثة مواضيع تُعتبر من إفرازات ما بعد الحداثة، وهي اضطهاد المرأة في ظلّ مجتمع ذكوري يتسربل بخطاب ديني مسيء للعقل. كما أنّنا سندرس ظاهرة تدنيس اللغة الروائية، والمرامي الفكرية والإيديولوجيّة للّغة السوقيّة المبتذلة. الموضوع الثالث الذي يحضر بقوة في هذه السردية هو ظاهرة اختطاف الأطفال القاصرين في الجزائر، وتعريضهم إلى الخصي أو بتر أعضائهم التناسليّة، وأحيانا قطع الخصيتين فقط. وكلّ هذه العيّنات هي من خصوصيّات أدب الدّيستوبيا التي لا مكان فيه للخير. تمثّل شخصيّات الرواية جماعات كيديّة تضمرُ الشرّ لبعضها البعض، لتشكّل في مجموعها كونا يهيمن عليه الشرّ والجريمة. يبرز انهيار المجتمع الديستوبي "من خلال العنف الذي يصبح مقياسا للعلاقات بين الأشخاص" (صبحي البستاني، 1921، ص15). وهو عنف مرتبطٌ بعصره، وإن كان عنصر الخيال العلمي يلفه بغشاء سميك.

اضطهاد المرأة:

نعالج هذا الموضوع الذي يكتسي حساسيّة بالغة في حقبة ما بعد الحداثة، ليس في العالم العربي فحسب، ولكن على المستوى العالمي. "إنّ الحديث عن وضع المرأة في المجتمع العربي لا يفقد جاذبيته، طالما أنّه حديثٌ عن عالم الذّكور، ولا يمكن لأحدهما أن يخطر بالبال بمعزلٍ عن الآخر؛ فهما منخرطان في تجربة وجوديّة سطحها كعمقها، وظاهرها كباطنها، وحلوها كمرّها؛ إنهما كيانٌ واحدٌ كثيرا ما حاولت الفلسفات البشريّة دراستهما باعتبارهما ثنائيّة ضديّة" (إبراهيم بوخالفة، 2021، ص53)، ومن ثم سادت علاقات القوة والهيمنة بين الرجال والنساء في كلّ مجتمعات العصر التي اخترقتها الحداثة الغربيّة.

إنّ معاناة المرأة من اضطهاد الرجل يعود بنا في العالم العربي، إلى القرون الوسطى، لمّا سقطتْ الخلافة الإسلاميّة، ودبّ الفساد في الشعوب العربيّة والإسلاميّة، بسبب اختلاط الثقافة العربيّة مع الثقافات الوافدة، ذات الأصول المسيحيّة أو اليهوديّة، أو حتّى الوثنيّة. يعد اضطهاد المرأة كما سبق وأن أكّدنا سابقا إلى سوء تأويل النصوص المقدّسة من قبل الرجل .

وفي السرديّة التي بحوزتنا، يطالعنا "سليم"، - ضابط مخابرات جزائري-وهو يقلّب أرشيفه بحثا عن تاريخ الحركة النسويّة، عبر العالم، وعلاقة ما يحصل بالجزائر بهذا التاريخ. كان الحراك السياسي قد انطلق في الجزائر، في حركة تصاعديّة مثيرة للجدل. ومن عمق هذا الحراك، انبثقت أصوات نسويّة تطالب برفع الوصاية عن المرأة. وقد وُصِف الرّجل بكونه عدوّا للمرأة. من الأهميّة بمكانٍ أن تؤكّد على سياسة الأبواب المفتوحة التي فرضتها الامبرياليّة العالميّة، من أجل أن تحشر أنفها في التحولات التي تحصل في دول الهامش. ما من ركنٍ من أركان اليابسة إلاّ وهو منشبكٌ في عقابيل الامبراطوريّة، ولا يمكن فهم ما يحصل من أحداثٍ سياسية وثقافيّة في كل بقاع العالم خارج هذا الإطار الكوني. قد يكون الحراك الذي انطلق مع أواخر العشريّة الثانية من القرن الحالي صرخة احتجاجٍ صاخبة في وجه التّهميش الذي يتعرّضُ له الشّعب المسحوق؛ وفي هذا الجو المحموم بالآخريّة يبحثُ السرد من خلال الرواية الدّيستوبيّة "عن بلاغة جديدة للمقموعين" (جاكوبي راسل، 2001، ص179)، عن لغة للإحباط في ظلّ تراجع أفق الانفراج السياسي وعدميّة الرؤية للواقع.

غير أنّ حدثا بمثل ضخامة ما كان سيحصل في الجزائر، لن تخطئه دوائر المكر الغربي. سيكون ذلك نافذة تتسرب من خلالها استراتيجيات غير تقليديّة في الهيمنة، وتشديد المراقبة من أجل منع بزوغ قوى شعبيّة لمقاومة مصالح الامبرياليّة العالميّة. لن يسمح الغرب بقيام أحزاب معادية له في مستعمراته القديمة؛ وسيسخّر كلّ إمكانياته المادية والسياسيّة والثقافيّة لمنع ذلك .

من بين السرديات المسرّبة من المركز إلى الهامش سرديّة تحرير المرأة. وهي كما هو معلوم من سرديّات حقبة التّنوير التي لا تزال الفلسفة الغربيّة في شقٍّ كبيرٍ منها متمسّكة بها. إنّ الحداثة كما يجادل هابرماس مشروعٌ لم يكتمل بعد، وهو في حاجة

ملحّة إلى المتابعة. وسرديّة تحرير المرأة حاضرة في هذه الرواية من خلال "سليم"؛ "بلع سليم ريقه وهو يقرأ ذلك الشعار السبعيني الصّريح والمحدد على نحو مخيف؛ بعد أن انزوى في غرفته يبحثُ في تاريخ الحركة النسويّة الراديكاليّة، المنادية بإسقاط البطرياركيّة والهيمنة الذّكوريّة على العالم بينما كانت الدعوات النسويّة قد بدأت بالتصاعد على نحوٍ خجولٍ، للمشاركة في المسيرات السلميّة، التي كانت دائرة في العاصمة ومختلف ولايات الوطن:

نحن لا نطالب بالمساواة بين الجنسين.....نحن نطالب بإلغاء الفوارق كليّا بيننا" (أمل بوشارب، 2021، ص40) . ما من شكٍّ في أنّ الأب الروحي للحركة النسويّة في الجزائر قد استوحى مبادئ الحركة العالميّة، التي نشأت في أمريكا، لتنتشر في كامل دول أوروبا؛ فالأفكار كائنات مهاجرة وعابرة للحدود، التي فقدت تحصيناتها منذ سقوط حائط برلين وتفكك الاتّحاد السوفياتي. نشأت الحركة النسويّة في أمريكا، من رحم الحضارة الغربيّة ذات المرجعيّة المسيحيّة؛ غير أنّها لمّا هاجرت إلى أوطانٍ غير أوروبيّة وغير أمريكيّة، أخفتْ-إلى حينٍ-مرجعياتها الثقافيّة والتاريخيّة، لتبدو حركة علمانيّة فاقدة لهويّتها الحضاريّة، ومن ثمّ تسهلُ عولمتها بدعوى طابعها الإنساني .

تطالب الحركة النسويّة في الغرب بإلغاء كلّ الفوارق الجنسيّة، والاجتماعيّة والثقافيّة بين الجنسين. وقد رأينا شيئا من هذا النوع في قصّة أمل بوشارب التي تحمل عنوان "ثورتهن"، والتي تطالب المرأة من خلالها بإلغاء كل ما يميّز المرأة عن الرجل، بدءا بلغة الخطاب اليومي، بحيثُ يتخلّص خطاب الأنثى من نون النسوة، ليخاطَب الجنسان بضميرٍ واحدٍ. كما رأينا المرأة تمارس التدخين، بعدما كانت تلك المادة حكرا على الذّكور .

من حقّ المرأة لكي تشعر بأنها متحررة من الهيمنة الذّكوريّة ومن التّمييز الجنسي أن تتخلص من شعرها الطّويل، وأن تضع على جسمها لباسا ذكوريا، وأن ترتاد الأماكن التي كان الرجل يحتكرها. تلك كانت أهمّ مطالب التحرر في الجزائر، والتي تشكّل من أجلها جناحٌ ثوري ضمن حراك 2019. وهي مطالب مستوحاة من الحركات النسويّة الغربيّة. يعني ذلك من بين ما يعنيه أن الثقافة الغربيّة هي ثقافة ذكوريّة، بمعنى أنّها "تنتظم بطريقة تهيء هيمنة الرجل ودونية المرأة في كافة مناحي الحياة ومفاهيمها، هذه الهيمنة أفضت بالأنثى إلى تبني هذه البنية الإيديولوجية وأصبحت تجسدها في حياتها وفي فكرها حتّى أصبحت كالرجل ترى دونية نفسها كبديهة مطلقة"(سعد البازغي، 2002، ص330). البنية الإيديولوجيّة التي يشيرُ إليها البازغي هي الفكر الليبيرالي الغربي الذي يدعو إلى نبذ كلّ أساليب فكر الحداثة، التي كرّست المركزيّة الذكوريّة والتمركز حول القضيب. ومن ثمّ زوال الفروق الاجتماعيّة والثقافيّة وحتّى المورفولوجيّة بين الجنسين.

تطالب المرأة المنساقة نحو شعار التّحرّر بإزالة كلّ الفوارق التي تميّز بين الذّكورة والأنوثة. فهل يعود ذلك إلى عقدة الخصاء التي يتحدّثُ عنها فرويد في تحليله لنشأة الأنوثة لدى البنت؟ أم أنها دعوة نابعة من معاناة الإقصاء بسبب هذا العضو الذي ينقصها، بينما يمتلكه الرجل، ويبني عليه نظاما ثقافيّا متحيّزا للذّكورة؟ قد يكون السببان مجتمعان هما محرّك ثورة المرأة، ومن أجل ذلك تتوسّل النساء تقويض هذا النظام الثقافي، من خلال مهاجمة أسسه البيولوجيّة والاجتماعيّة والنّفسيّة. وإنّ الدّعوة إلى تحرر المرأة من اللباس الذي يميّزها بوصفها أنثى يدخل في هذا السياق الثوري ما بعد الحداثي. إنّ النظام الذّكوري التي تأسس بموجبه نظام ثقافيّ راسخ في اللاوعي الجمعي للمجتمعات الإنسانيّة كلها-مع درجات في الهيمنة-يتطلب ثورة محمومة على ثقافة المجتمعات المعنيّة بهذه الحركة النّسويّة. وبما أنّنا معنيّون بالمجتمع الجزائري في سرديّة أمل بوشارب فسنلتزمُ النصّ المعروض على التّشريح، وربطه بالسياق الثقافي الذي ارتبط به فكريا وأخلاقيّا .

لاحظ سليم أنّ المرأة الجزائريّة في العشريّة الأخيرة قد حقّقت مكاسب تاريخيّة، مثيرة للجدل، وخصوصا على الصّعيد الاجتماعي، ممّا أثار حفيظة الذّكور. فقد كان الاحتفاء بالمرأة والتّبجيل الذي كانت تحظى به على حساب الذّكور مثيرا للسخط الاجتماعي. فقد كانت تُوظّفُ على حساب الذّكور، وتعاملُ في الوظائف العموميّة بنوعٍ من المحاباة، لا نجدُ لها تفسيرا موضوعيّا. كان الناس يتحدّثون عن "تخنث الدولة، والذي غدا صارخا لدرجة كانت تزعجُ قطاعا غير قليلٍ من البطّالين" (أمل بوشارب،

2021، ص 41)؛ ومع ذلك فإننا نجدها تشارك في الحراك السياسي بوصفها من الفئات الاجتماعية المطالبة بالتغيير، وبوصفها أنثى تدافع على قضيّة نسويّة تراها حيويّة .

تشعر المرأة الجزائريّة بنوع من التمييز على أساس الجنس، وفي مناطق عديدة من الوطن تتعرّض لكثير من أشكال الاضطهاد، والإقصاء. لا تزال نظرة الرجال إليها إقصائيّة وذكوريّة وأحيانا عنصريّة. إنّ فئات عريضة من المجتمع، حتّى وإن كانت عالمة لا تزال تؤمن بتقسيم العمل على أساس الجنس. فالمرأة وفقا لهذا التّقسيم مرصودة للتربية والإنجاب وإشباع حاجة الرجل، وخدمته. كما أنّها غير معنيّة بالمشاركة في اقتصاد وطنها، ولا يحقّ لها أن تشارك في العمل السياسي. وإنّ شخصيّة ياسمين تتعرّض لكثير من التّعنيف والجلد بسبب مشاركتها في مظاهرات الحراك، ورفعها لشعارات سياسيّة. وقد أغاض ذلك أخاها المتطرف "زين الدّين"، فاضطرّها إلى حصارٍ مشدّدٍ في البيت، وساهمت شقيقتها الكبرى، الموظفة –ويا للمفارقة-في تنفيذ هذا الحصار والتأكيد عليه. "دخل زين الدّين غرفته وهو يرتدي تعبيرا ينمّ عن امتعاض بينما شعر بالندم على تفويت حصة الحضارة البريطانيّة لحضارة اليوم، فقط من أجل تنفيذ غارة مفاجئة على أخته ياسمين التي كانت محبوسة بعناية في المنزل منذ أيام حيثُ كانت ترقد على مطرح الاسفنج الرقيق في غرفة الأموات رقم 2 كما كان يطلق عليها. "خاوتهم ما عندهمش الرجلة يخليوهم يخرجوا في المسيرات" (أمل بوشارب، 2021، ص43). كانت المرأة، بالأمس القريب، وإلى يومنا هذا-وإن بشكل محدود-ممنوعة من ممارسة النشاط السياسي، في الشارع، وحتّى في الأماكن المغلقة. وإنّ الانفلات النسوي الذي نعيشه اليوم بسبب الثقافة الجامعيّة، والعولمة، هو بسبب ضعف المروءة عند الرّجل من وجهة نظر الفئات المحافظة. إنّ ظهور المرأة في الشارع، وهي تتظاهر وترفع شعارات سياسيّة معادية لجهة ما، يعرّضُ عشيرتها إلى الفضيحة والوسم بالعار. وبذلك يمكن تفسير العنف الجسدي الذي تعرضت له "ياسمين" لمّا ظهرت على مواقع التواصل الاجتماعي وهي تصدح بشعارات الثورة. "كانت تصرخ من قمة رأسها، حتّى أنّ فمها بدا عالقا على شكل مصيدة صدئة، تستعد للانطباق على رقبة ضحيتها دون أن تدرك ياسمين ما الذي أصاب شقيقتها الكبرى التي تصارع أمها عمليا من أجل أن تظفر هي الأخرى بنصيبها في هرس لحم شيطانة مارقة كانت تتلبس في تلك اللحظات لسوء الحظّ جسدها. ولم يكن يبدو أن ضربات الأم التي أخذت تذوي مع مرور الدّقائق تشفي غليل شقيقتها، ولا ركلات زين الدين الطائشة تبدو مقنعة بما فيه الكفاية" (أمل بوشارب، 2021، ص52). لقد كان الكل في العائلة يمارس العقاب ذاته على البنت المارقة، التي تحدّتْ الأعراف والتقاليد وقوانين النظام الذّكوري الذي يصنّفُ المرأة كائنا دونيا ومنقوصا، يتوقف وجوده على خضوعه لمقدّسات المجتمع وأساطيره. واللافتُ في هذه المحاكمة انضمام الأخت الكبرى إلى الجلادين من الرجال، رغم أنّها امرأة عاملة، ومثقفة. والواقع أنّ المرأة هي التي تصنعُ مأساتها من خلال ترويج الثقافة التي تضطهدها، وتمريرها في إطار مهمّتها الأسريّة. إنّ نسيبة كانت تمارس دورها في المحافظة على النظام الثقافي الذي يشيئها، ويختزلها إلى أداة لتحقيق متعة الرجل وإشباع شهوته في السيطرة. تحرصُ نسيبة، على تعنيف الأخت المارقة وتتشدّد في توصية الأمّ وعدم التسامح مع "ياسمين"، التي تلحق الضرر بالهيبة الاجتماعيّة للأسرة. والأمّ بدورها تتماهى مع هذه المسرحة التي تُجلَدُ فيها ذاتيّة المرأة وتلغى بوصفها ذاتا تتمتّع بوجودٍ مستقلٍ. إنّ وجودها تابعٌ لوجودٍ أعلى ومهيمن، وهو وجود الرّجل، بما يعني ذلك من أنظمة للتمثيل، وأخرى للممارسة السياسيّة والثقافيّة، والأخلاقيّة بشكلٍ أخصّ.

تفكّرُ "نسيبة" في عقابٍ معنوي لأختها المارقة، بما أنّ العقاب الجسدي بدا عاجزا عن ردعها. فكرت نسيبة اقتراح تغيير اسم ياسمين إلى اسم آخر عقابا لها على تدنيس اسم العائلة "لم لا وهي التي تجرأت على تدنيس اسم العائلة منذ أيام، بعد أن خرجت للصراخ كخرقاء في مظاهرة" (أمل بوشارب، 2021، ص57)؛ لقد بدا لها أنّ اسم شقيقتها رومنسي، يحمل الكثير من روح العصر وشعريته. إنّ دلالته من حيث الظلال والمعاني الإيجابيّة ذات خصوبة عالية. فالاسم حمّال لرموز الشخصيّة الفرديّة، وهو اختزالٌ لمعالمها وهويّتها، وأبعادها الروحيّة. وإن تجريد الأخت المارقة من اسمها الذي اقترن بها وبذاكرتها الثقافيّة

هو تجريدٌ لها من شخصيّتها. وهو فصل بينها وبين تاريخها، وطفولتها، وشبابها؛ إنه أشبه بعمليّة الخصاء، التي تحوّل الذّكر إلى آلة عاطلة عن وظيفتها الميكانيكيّة، إنّ الفصل بين الاسم والمسمّى هو اعتداء على الذّات، لا يضاهيه الاضطهاد الجسدي الذي تتعرض له "ياسمين". لم تكن نسيبة تدافع عن قضيّتها، من خلال تصدّيها ل"ياسمين"، وإنّما عن ثقافة الذّكور التي تنتج فكرا متسلّطا، يسعى للهيمنة على موضوعه ويضطهده من أجل تأكيد القوّة والفحولة. فالعنف ضرورة لعالم الذّكورة، وهو يتغذّى منه ويوجد من خلاله. وسنرى لاحقا ذلك من خلال شخصيّة "سليم"، ذلك الضّابط الأمني الذي يستمتعُ بترهيب زوجته واضطهادها وإخضاعها لاستيهاماته.

إنّ استعمال العنف الجسدي ضدّ المرأة كوسيلة للتربية الاجتماعيّة يعود بنا إلى القرون الوسطى، حيثُ يعمد الأولياء إلى تأديب أبنائهم بالجلد، كطريقة من طرق قتل الذّات الفرديّة المنسلخة عن الذّات الجماعيّة. وهي تجريدٌ لقيم الجماعة ومقدّساتها وحدودها التي لا يُسمَحُ باختراقها. ف"ياسمين" التي انساقت مع فكر ما بعد الحداثة وراحت تؤسّس لذاتها وفق منظور ما بعد حداثي، يتجاوز الثقافة السّائدة والأعراف التقليديّة، تتعرّض للقهر الجسدي، ومن كلّ محيطها العائلي، ولن تجد أيّ فردٍ يُسنِدها لمواجهة ثقافة الماضي إلاّ صديقتها "هنادي"، والتي لا تحقّق لها إلاّ حضورا سلبيّا، ليس من شأنه أن يغير في موازين القوى بين إرادة الذّات الفرديّة الساعية لامتلاك جسدها، والذّات الجماعيّة التي تقاوم إرادة الانسلاخ عن روح الجماعة وطقوسها الاجتماعية والأخلاقيّة. لقد تمّ تمثيل "ياسمين" ب"شيطانة مارقة"، وهو تمثيل طالما استعاره

المسيحيون في القرون الوسطى لتمثيل المرأة. إنّ من بين الصور التّمثيليّة التي تقترنُ بذكر المرأة في الفكر المسيحي القروسطي هي صورة "الشيطان". فهو –من منظور المسيحيين-كائنٌ رمزي يختزل إرادة الشر، والإغواء والرّذيلة الأخلاقيّة والاجتماعيّة. الشيطان في كلّ الثقافات هو إرادة الشر والإغواء والتّضليل. وأن تُختزلَ المرأة إلى شيطان قد عنى تجريدها من آدميّتها وإنسانيّتها، وتحويلها إلى رمز للشرّ المطلق الذي يتعيّن مقاومته بكلّ أشكال العنف.

تمّ توقيف "ياسمين" عن الدراسة بسبب ظهورها على صفحات التّواصل الاجتماعي تتظاهر مع حشدٍ من النّساء، ضمن الحراك الشعبي. لقد كانت بصدد تشكيل ذاتها المستقلّة، المنبثقة عن رؤية جديدة للعالم، متعلّقة بوجود اجتماعي متميّز، غير أنّه، في المجتمعات الذّكورية لا يُسمَحُ للتابع أن يتكلّم. "ليست المشكلة هي أنّ المرأة لا يمكنها الكلام في حدّ ذاته، ولا أنّه لا توجد سجلات لوعي الذّات الخاص بالمرأة، بل هي أنهم لا يمنحونها موقعا داخل الإبلاغ. ليس هناك فضاء يمكن منه للذّات التابعة (المحدد جنسها) أن تتحدّث (....)، إنهم لا يسمحون لها بموقع ذات" (روبرت يونج، ص333/332).

أن تشارك المرأة في عمل تابع للذّكور في طبيعته، وفي موقعه، يعنى ذلك السلوك إساءة بالغة لسمعة العائلة المحافظة. وقد أصيبت "ياسمين" بجراح نفسيّة عميقة، أثّرت كثيرا على صحّتها النّفسيّة. وقد تكفّلت السوريّة هنادي بتوجيه صاحبتها إلى "انغريد" التي كانت تدير جمعيّة (أس أو أس فراو)، وهي جمعيّة ذات طابع إنساني، تتكفل بالنساء القادمات من سوريا، والمهجّرات بسبب الحرب الأهليّة لمعالجتهنّ عن بعدٍ. وبما أنّ "ياسمين" تبدو وكأنها مصابة بصدمة نفسيّة بسبب التوقيف المتعسّف عن الدّراسة، والعقاب الجسدي الذي كانت تتعرّض له من طرف كلّ أفراد أسرتها، فقد ارتأت "هنادي" أن توجهها لتلقي العلاج من قبل تلك الجمعيّة الإنسانيّة. كان أهلها الذين يُنتظَرُ منهم تقديم الدّعم والحماية؛ قد تحولوا إلى مصدر ترهيب، وتعنيف يصعبُ تجاوز أثرهما النّفسي. بينما كانت "ياسمين" تخطّ رسالة إلى "انغريد"، أثناء تلقيها العلاج النّفسي، تذكّرت موقفا دراميّا عن حلقات التّعذيب التي تعرّضت لها في مشهد عائلي درامي. كانت "نسيبة" ووالدتها تتعاونان على تأديب البنت المارقة :

-اجبديها من شعرها اجبديها.

-وشعرت فايزة أنها تسمع صوت زوجها، لكن لا، كانت تلك ابنتها "نسيبة."

-سحبيها في القاعة.

وشعرت بثقل يدي "نسيبة" عل كتفيها وهي تنغرس في لحمها وتشدّها بأقصى ما أوتيتْ من قوة، لبث المزيد من الزخم في ضرباتها. ورمت بكل ثقلها على "ياسمين" التي كانت الآن أشبه بخرقة رثّة، تلتزم في هذه اللحظات بقانون الصّمت السّائد في العائلة، وسدّ منافذ الوجع فيه أيا كان مصدرها" (أمل بوشارب، 2021، ص152). قد يبدو لنا من الوهلة الأولى أنّ هذا المشهد المسرحي المأساوي عائدٌ إلى محاكم التفتيش في القرون الوسطى، حيثُ تُطبَّقُ أحكام الكنيسة بكلّ قسوة، وعلى الملأ من الناس. غير أنّ المشهد يتمّ إخراجه في بيت الضحيّة، ومن قبل والدتها وأختها الكبرى. كانتا تمارسان طقوس العقاب الذي تفرضه القبيلة وتقف على تنفيذه بين جدران البيت بكلّ حرفيّة. كان الجلد هستيريا، ومتتابعا، ومتصاعدا في الشدّة، دون أن يثير ذلك أدنى علامات الشفقة. إنّها حالة مرضيّة تعاني منها كلّ العائلة، فهي ضحيّة ثقافة قروسطيّة متخلفة ومتوحّشة، لا يمكن مضارعتها في أيّ مجتمعٍ.

عودة إلى الرواية، مع شخصيّة عسكريّة إشكاليّة، في زمنٍ لم تُغمَضْ فيه عينٌ لعسكري. لقد اقترن فترة الحراك الشعبي باستفحال ظاهرة اختطاف الأطفال القصر، وخصيهم واستئصال أعضائهم التناسليّة. وكان سليم مهموما بالربط بين الحراك وبين اختطاف الأطفال، وربط ذلك بأيدٍ خارجيّة. ومن أجل تقصّي هذه التّخمينات كان يبحث بحماسة مفرطة في تاريخ الحركة النّسويّة في أمريكا، وكان يتوسّل أيّ خيطٍ يقوده إلى تفسير ما يحصلُ في الجزائر، لتفسير اقتران الظاهرة السياسيّة متمثّلة في الحراك الشعبي، والظاهرة الجنائيّة ممثّلة في اختطاف القصر. وكان ممّا قرأ أنّ "أعباء الإنجاب والولادة في نظر الحركة النسويّة الراديكاليّة التقليديّة شكل من أشكال تأطير قدرات المرأة وتحديدها" (أمل بوشارب، 2021، ص91) تثبتُ الجذور الفكريّة للحركة النسويّة عداء لا شفاء منه لنظام الزواج ضمن أسرة، كما هو في المجتمعات العربيّة والإسلامية أو حتى المسيحيّة. إنّ الحركة النّسويّة ترفض الإنجاب لما ينجرّ عنه من إرضاعٍ، وتربية وملازمة للمولود؛ وتُعدُّ هذه التّبعات تضييقا لحريّة المرأة وإنهاكا لجهدها وتشويها لأناقتها الجسديّة. ومن هنا، تأتي كراهيّة الذّكور عند هذه الأقليّة من النساء المتطرفات. ومن أجل إثبات عدم حاجتهنّ للرجل طرحن السحاق بديلا لإشباع حاجتهن الجنسيّة. ويتساءلُ الضّابط "سليم" عن تورّط محتمل للحركة النسائيّة في الجزائر، المتزامنة مع الحراك الشعبي، والمدعومة من طرف شخصيّات أجنبيّة منشبكة في الحبكة السرديّة للرواية. من أهمّ تلك الشخصيّات تخطرُ بالبال الفتاة السوريّة "هنادي"، المكلفة من قبل الألمانية "كلاوس انغريد"، بربط التواصل مع "ياسمين". كما تخطر بالبال شخصيّة "كايلا" الأمريكيّة التي قدمتْ إلى الجزائر من أجل إنجاز تحقيق سري متعلّق بإرهابي جزائري متوفى، ومتهم باختطاف القصر وقتلهم. وهو والد زين الدين وياسمين ونسيبة وزوج فايزة.

كان الضابط "سليم" منغمسا في التفكير في قضيّة الحراك السياسي الذي اقترن باستفحال الجريمة، وبحضور أجنبي مريب. فقد كانت الجزائر بلدا مفتوحا، ومخترقا، وتحت قبضة الامبرياليّة الغربيّة، التي ستمنعُ عنه الخروج عن النظام الدّولي الذي أقرّته الامبراطوريّة. ومع ذلك، فقد سمحتْ الضّغوط الرّهيبة التي تعصفُ بالضابط "سليم" بتفجّر هواجسه النفسية، وعقده المترسّبة في لاوعيه. لقد كان شخصيّة عنيفة ومتهوّرة، ومندفعة. تتعطّلُ قدرته على التّفكير كلّما لاح له أمرٌ مريبٌ في سلوك زوجته، ويظهر إلى العلن استبداده الذّكوري المستوحى من المكوّن الدّيني في ثقافته. لقد بدا وكأنّ المرأة متّهمة حتّى تثبت براءتها. وهي معرّضة للعقاب والإدانة مع كلّ شبهة تحيط بها. فقد أُقصِيتْ "ياسمين" من الدراسة لمجرّد مشاركتها في مظاهرة سياسيّة. وإنّ سلوكها يُعدّ خرقا لقوانين القبيلة، حتى لا نقول المجتمع. أضحتْ المشاركة السياسيّة للمرأة حقّا مكتسبا من قبل شريحة كبيرة من المجتمع الجزائري؛ وتقلّص عدد العائلات التي تتمسك بصورة نمطيّة عن المرأة التّقليديّة .

علم "سليم" بأنّ زوجته تملك حسابا سريّا في الفيسبوك، وقد عنى ذلك من منظوره اعتداء موجعا على رجولته. فدخول المرأة للفضاء الأزرق خرقٌ لعالم الرجولة، وتعدٍّ لحدود رسمها الذّكور، ولا يجوز اختراقها، إلاّ في حدود ضيّقة. "حطّ الآن صفعة مدوية على وجهها، وقد ذكّره كونها أفعى بوصفها الضمني له منذ دقائق أنه صرصور، لكنها لن تتمكّن من المواربة مطوّلا لأنه قبض الآن على رأسها ولا مجال للمناورة؛ فكّر وهو يسحبها من شعرها ودكّها على الكرسي" (لأمل بوشارب، 2021،

ص99). لقد أفرج الزّوج عن عدوانيّة غير عاديّة، لدى شعوره بتهديد يطال سلطته الذّكوريّة. إنه خزّانٌ أسطوري لعنفٍ لا شفاء منه، ولا حدود له. إنّه مستعدٌّ لسحقها، ويرى في ذلك دفاعا عن كرامته، وعن أرضه وعرضه؛ والمرأة التي تتطاول على سلطة الزّوج تعرض نفسها للانسحاق، دون أن تجد نصيرا، يتعاطف مع قضيّتها. لقد وجدت "ياسمين" نفسها معزولة، ودون سندٍ لأنها تواجدت فوق أرض محضورة على النّساء. نحن في هذه السرديّة إزاء موقفين من المرأة ومن قضيّة انفتاحها على العالم الخارجي. موقفٌ رجل قويّ ينتمي إلى المؤسسة العسكريّة، فهو يمثّل رمزا للقوة المطلقة، والتي لا رادع لها، والمنسجمة مع الذّكورة، وما تخوله صفة العسكريّة من هيبة. فإذا كان العسكريّ يبدي حدوده القصوى لاستعمال القوّة، إذا تعرّض الوطن للانتهاك، فإنّ الزوجة أو الأم أو البنت، لا تقلّ قداسة عن الوطن. في المخيال الرمزي للشعراء يقعُ تمثيل الأرض بالمرأة. ويستوي كلاهما في الشرف. إنّ العسكريّة تعزّز صفة القوّة الذّكوريّة بما تعنيه من صرامة وخشونة وانضباط، وكل ذلك عوامل مساعدة على تحقيق الهيمنة الذّكوريّة لدى تلك الفئة من المجتمع. ولذلك، كان أيّ سلوكٍ مريبٍ من قبل الزوجة يواجه بحزمٍ يُشعِرُ الزوجةَ بأنّها مهيمنٌ عليها، ولا مجال للخروج عن الطاعة. وقد اختلف الأمر نسبيا مع "ياسمين."

والموقف الثاني من المرأة نابعٌ من الحضيض الاجتماعي. فعائلة "زين الدين" متديّنة، ومحافظة، رغم انتساب بعض أفرادها للجامعة. فلا عجبَ أن تُحاطَ المرأة بالمحرّمات والممنوعات، والأماكن المحضورة. وتتعرض للعقاب إذا انتهكت الحدود التي يضعها الذّكور.

يصفُ العسكري "سليم" زوجته بالأفعى، وفي المخيال الرمزي للعرب القدماء، توصفُ المرأة الماكرة والمخادعة بالأفعى، لأنّها شبيهة بحيّة تلدغُ ضحيّتها فلا يخطئها الموت. وفي الحالة التي أمامنا، يكون الموت رمزيّا. فيفقد الزوج القدرة على الإمساك بشرفه، ويفقد السيطرة على الزّوجة دون أن يتفطّن بأنه مطعونٌ. ومن هنا، تفتك الشّكوك بالزّوج إلى حدّ الإصابة بما يشبه الجنون. إنّ الرجل يعاني من شعوره بالعظمة ومن سطوته على المرأة بقدر ما تعاني هي من اضطهاده. تفقد العلاقات الأسريّة في هذه الحالة توازناتها النفسيّة والاجتماعيّة، وتتحوّل العلاقة بين الزوج والزوجة إلى علاقة السيّد بالعبد. ومن هنا، تصَنّفُ المرأة تابعا بمفهوم غرامشي. إذا كان وجود الرّجل لا يتحقق إلاّ إذا مارس التعالي على المرأة وقهرها، أي إذا تحوّل إلى ذات مطلقة، فإنّصورة المرأة تختفي "ليس إلى عدم بدائي، ولكن إلى حركة مكوكيّة عنيفة هي التّشكيل المزاح لامرأة العالم الثالث العالقة بين التراث والتّحديث" (روبرت يونج، ص332 .(

إنّ هذا الوجود المطلق في مدلوله الفلسفي والاجتماعي يعني إلغاء وجود الآخر. وفي هذه الحالة نسقط في مقولة جون بول سارتر "الآخر هو الجحيم". حيثُ يقتضي وجود الأنا موت الآخر رمزيّا، وإزاحته من الواجهة الاجتماعيّة. يختفي اسم المرأة في المجتمعات البطرياركيّة، وينوب عنه اسم الذّكر بوصفه وصيّا، وحاملا لوجود آخره في شكله الضّعيف والدّوني.

لغة الكتابة الروائيّة الديستوبية:

المدينة الفاسدة، تعجّ بالجريمة، والفساد السياسي والمالي، وتغيبُ عنها لغة الفضيلة والعقل والدّين. والذي يسود هو علاقات القوة والمصالح المتضاربة، والدّسائس الماكرة والمخادعة. والملاحظ أنّ الفئات الأقلّويّة هي التي تدفع ثمن استفحال الجريمة. والمقصود بالفئات الأقلويّة المرأة والأطفال القصّر، والمسحوقين بشكلٍ عام. هذه المدينة يتشكّل فيها الخطاب التواصلي من خلال اللّغة المبتذلة، والعنف اللّفظي الذي يدنّسُ البعد الأخلاقي للّغة.

في كلّ المجتمعات، وفي كلّ الثقافات، تكتسي اللّغة-بوصفها أداة تواصل اجتماعي-قداسة مكينة، وغير قابلة للتّدنيس لعلاقتها بمعتقدات الشّعوب وتراثها الثقافي المجيد. فهي حمّالة لقيم المجتمعات وآثارها التاريخيّة وحاضرها وماضيها. من ناحية أخرى فإنّ اللّغة عادة ما تغتني بالذّات الإنسانيّة، باعتبار العلاقة الحميمة بينهما. إنّ اللّغة تشكّل الوعي الإنساني، وتتشكّلُ به، وتعبّر عنه اجتماعيا. ومن هنا، فإنّ نظرة الذّات الواعية والمفكّرة إلى اللغة لا تكون نظرة من الخارج، فاللغة

تسكنها، ويتحقق وجود الذّات لغويا، كما يتحقق اجتماعيّا. إنّها العلاقة الجدليّة بين الكلمات والأشياء. فهي أشبه ما تكون بعلاقة الاسم بالمسمّى، لا يتحقق إحداهما إلاّ بحضور الآخر.

ومع تغيّر الرؤية الفكريّة للإنسان في النصف الثاني من القرن العشرين، وبعد انهيار ثقة الغرب في القيم ذات المرجعيّة الميتافيزيقيّة، تغيّرت رؤيته للّغة باعتبارها قيمة ثقافيّة وفلسفيّة مكتفية بنفسها، ومتلبّسة بمرجعيّة دينيّة لا تغيبُ لحظة عن الخطابات الإنسانيّة، الأدبيّة منها وغير الأدبيّة. أضحتْ اللّغة تستوحي قيمتها من موضوعها الخارجي وبعدها التّداولي. لا تكون اللّغة هامّة أو ضعيفة القيمة إلاّ بقدر ما تحقّقه من منفعة للمخاطِبين والمخاطَبين، وبقدر اتّصافها بالصّدق والتوافق مع حقيقة الأشياء الماديّة.

نحاول في هذا الفصل من الدراسة النظر في اللغة الروائيّة التي وظّفتها أمل بوشارب، وهي كما سنرى لغة ما بعد حداثيّة، تصف الأشياء في ماديّتها الفجّة، وفي شذوذيتها الخادشة للحياء. كانت اللغة الروائيّة في مقاطع كثيرة لغة سوقيّة ملوثة بأمراض المجتمع وعقده، وأزماته النّفسيّة وانحرافه الأخلاقي. تحاول الروائيّة من خلال هذه الجماليّة أن تكون لغتها ملتصقة بالواقع النثري الفجّ، دون إعمالٍ للخيال أو الانزياح الدلالي .

في هذا السياق يخطر بالبال تعبير القرآن الكريم عن بشريّة الأنبياء، وأنه يعتريهم ما يعتري البشر العاديين. فقد أنزل الله تعالى استنكار الكفار بشريّة الأنبياء، فعبر عن الفكرة من خلال الكناية، معرضا عن التّصريح، صونا لمقام التّنزيل. "وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا" (القرآن الكريم، سورة الفرقان، الآية 7). لقد أعرض اللّه تعالى عن ذكر فعل التغوط وكنى عنه بالمشي في الأسواق، حفاظا على طهريّة اللّغة. واللغة الروائيّة تملكُ بدائل متعدّدة لسرد الواقع وتمثيله، مع المحافظة على اللياقة الاجتماعيّة وحساسيّة القراءة والتأويل. غير أنّ الإعراض عن تلك البدائل وتوسّل العلاقة المباشرة بين الكلمات والأشياء، هو من مخرجات ما بعد الحداثة، التي لا تتردد في صدم حساسيّة القارئ واستفزازه للتّعبير عن انحطاط العالم وتشيء الذّات الإنسانيّة وابتذال الأديان السماويّة.

تفاجئنا الروائيّة منذ مطلع السرديّة بانتهاك التابوهات التي يتحاشاها الرأي العام، لكونها تثيرُ ما تسكت عنه الثقافة الشعبيّة، وتتجنّبُ الخوض فيه، والتّصريح به إلاّ سرّا. نقرأ في مطلع الرواية حوارا بين رجل وعجوزٍ حول حالة اختطاف طفل قاصر.

-راهم يقولوا خطفوا طفل في عمره خمس سنين في سيدي محجوب

-الله يحفظ ويستر، الواحد لازم يعسّ على ولادو

-راهم يقولوا راهم يسرقولهم الكلاوي

شا يديروا بالقلاوي يا خدعتي؟

الكلاوي الكلاوي الحاجة ماشي القلاوي (أمل بوشارب، 2021، ص12). تنزل الكتابة ما بعد الحداثة إلى الحضيض الاجتماعي بلغة شعبيّة، تكتبُ كما تُنطق باللسان العام، وذلك إقرار من مفكّري ما بعد الحداثة بأنّ اللغة هي التي يتعيّنُ عليها أن تتخلّص من طبيعتها العالمة، من بنيتها النّحويّة من أجل التمثيل الصادق لواقع العصر وروحه. إنّ تفشّي اللغة العاميّة في المجتمع ينبئ عن سوء تقدير الأمّة للّغة الفصحى، بسبب حالة الجهل المتفشيّة في العامّة. كما يدلّ ذلك أيضا على فقدان اللغة العربيّة الفصحى لما كانت تتمتّعُ به من قداسة مستوحاة من علاقتها بالمقدّس، وبالهويّة الثقافيّة، وبالذّاكرة الجماعيّة. فالحداثة الغربيّة صرفتْ المتعلّمين عن لغة الأمّة، تشكيكا في قدرتها على تمثيل العصر وتحقيق النّهضة. وهذا الموقف من لغة الذّات تسرّب إلى الوعي بفعل الاستعمار الذي أوهم أصحاب مستعمراته أنّ السبيل الوحيد لتحقيق النهضة هي توسّل النموذج الغربي، والتخلّي عن ثقافة الماضي، لأنها سبب مآسي العرب. وانساقت الفئة العالمة من المجتمعات العربيّة وراء هذه الفكرة الاستشراقيّة، وأمعنتْ في سوء تقدير لغة الأمّة، واحتفتْ بلغة المستعمر، بوصفها عنوانا للحداثة، وللتّغيير

الإيجابي. فازدادت اللغة العربيّة غرابة في بيتها، حتّى غدت الكتابة الأدبيّة هجينة، محشوّة بلهجات محليّة، لا علاقة لها بالفصحى. ثمّ ما لبث القرّاء أن استحسنوا هذا التقليد الجمالي، ليتحوّل إلى مصدر إثراء للكتابة الروائيّة والمسرحيّة. وفي الرواية التي بين أيدينا، نقرأ من حينٍ لآخر مقاطع حواريّة بلغة عاميّة، غير أنّ الكاتبة لم تنسق بشكلٍ اعتباطي وراء هذه الظاهرة، لأنّ المقاطع السرديّة العامية بدتْ عفويّة، منسجمة مع منطق السرد العام. إنّ نطق الشخصيّة الروائيّة بلغة عاميّة يُقْصَدُ منه تعيينا للهويّة الثقافيّة ولموقعها الطّبقي، وانسجاما مع روحيّة المحاورة. ويذهبُ آخرون-ورشيد بوجدرة أحدهم-أنّ اللغة السوقيّة يؤتى بها كناية عن سوقيّة الواقع الاجتماعي وانحطاطه، وابتذال القيم التي تحكم العلاقات الطّبقيّة. ومهما يكن، فإنّ اللغة العاميّة في الخطاب الروائي لا يمكن أن توظّفَ توظيفا عشوائيّا، وإنما تتخلل حوار الشخصيّات حيثُ تبدو طبيعيّة وذات دلالة عميقة.

نظرا لأنّ اللّغة هي الأداة التي ندرك من خلالها العالم، فإنّ التعبير عن الجريمة سيكون بلغة توازي موضوعها من حيثُ الابتذال والعنف. فقد انتشرتْ ظاهرة اختطاف الأطفال القصّر واقتلاع خصيّهم، وتركهم في العراء إلى أن يعثُر عليهم في الشارع، أو في الغابة. "كانت قضيّة الخصي المبتورة التي تزامنت مع التّحضير للانتخابات الرئاسية المزمع إجراؤها في الأشهر القادمة لا تزال تشكّل بحسب سليم لغزا غير مفهوم لهذه اللّحظة. والحقيقة أنّ إيعاز الأمر برمّته للمخابرات العسكريّة بالتّحديد للتحقيق فيه، بدلا من مصالح الدّرك كان يعني أنه ملف أمن دولة لا يقلّ خطورة عن قضايا الإرهاب الإسلاموي" (أمل بوشارب، 2021، ص116). إنّ حضور العسكر في قضايا الجريمة الجنائيّة يعطي بعدا سياسيا لظاهرة اختطاف الأطفال، كما يُلمح إلى حضور مخابراتي أجنبي، يسعى إلى ترذيل المشهد السياسي في الجزائر، وتأزيم الوضع الإنساني لإثارة الرأي العام المحلي حول النظام السياسي في تلك الحقبة المعقّدة. إنّ اختطاف القصّر والعبث بأعضائهم التناسليّة من شأنه أن ينتج حالة إحباط اجتماعي عام، يعبّرُ عنها خطابٌ مثيرٌ للغثيان .

لم يكن معجبا جدّا بتلك الرائحة؛ لكنه انزعج على نحوٍ خاص من تفسخ إحدى الخصي، واتّجه مباشرة إلى علبة الطماطم الفارغة، التي كان يستقر في قاعها ذلك الرحم الصّغير المغمور بكم فورمالين، يتجاوز حجمه بحوالي العشر مرات وقد غمر فيها أمس رحما صغيرا آخر من ذات الفصيلة. تربع على الأرضيّة الإسفلتيّة الشّائزة وتناول ذلك العضو الطازج ودك سبابته الغليظة وسطه. (...)، حالته كانت تبدو جيدة، غمغم بإعجاب وقارنها بالرحم الأولى التي عمل عليها منذ أشهرٍ بيدٍ خبيرة....لقد كانت رحما سليمة على نحو تام لم ينخرها العفن ولم يتغير حجمها ولم تخرج منها أي مواد ذائبة على عكس الأعضاء الذّكريّة الأخرى" (أمل بوشارب، 2021، ص125/124). كان الطّبيب يجمع الأعضاء التناسليّة للأطفال المختطفين، ويحفظها في علب ويمزجها بمواد كيمياوية حتى لا تتحلّل، وكان يراقب تلك الخصي والأرحام بابتهاج مرضي، يجعلنا نتخيّلُ أنفسنا أننا في مشرحة للأعضاء البشريّة من أجل إجراء تجارب علميّة على جسد الإنسان، غير أنّ الذي يقف وراء هذه الظاهرة يظلّ دوما محلّ تساؤل. فالروائيّة أمل بوشارب لا تفصح عن رؤيتها لهذه المأساة التي تسلّلتْ إلى المجتمع الجزائري قادمة من منظمات عالميّة مشبوهة. والغريب في الأمر أنّ الخاطفين يستهدفون الأطفال وهو يغادرون المدارس غير مرفوقين بآبائهم، وفي ظلّ غياب رقابة اجتماعيّة أو رسميّة. فالمواطنون يشاهدون عمليات الاختطاف ولكنهم يحجمون عن التدخّل للقبض على الفاعلين وتقديمهم للجهات الأمنيّة. "كان يتم اختيار الأطفال المستهدفين من رواد رياض الأطفال والمدارس القرآنية في الأغلب، لكن تلك الخصية بدت له راشدة على نحوٍ يدعو للقلق، أمسكها بتشكك وعاد لرميها في الاسطل بلا مبالاة، فالمهم أنها خصية، يفترضُ أنها ستقوم بوظيفتها المحدّدة وانتهى" (أمل بوشارب، 2021، ص125). يُخيّلُ إلينا أنّ هذا الطّبيب يداعبُ لعبا كرتونيّة، فيلامسها، ويقلبها يمينا وشمالا، ويقدّرُ حجمها وثمنها. إنّه لا يبدو عليه أنّه يداعي خصية من لحم ودم أُقْتُلِعتْ لآدمي صغيرٍ. لقد فقد جسد الإنسان قداسته، وغدا قطعة لحمٍ تباعُ في الأسواق كما يُباعُ لحم الحيوانات .

إنّ أسماء الأعضاء التناسليّة للذّكرِ وللأنثى تُستَعمَلُ بكثرة في هذه السرديّة، كما تكثر الألفاظ الدّالّة على العنف والقتل الألفاظ الدّالة على التّشريح والتّقطيع، وكأننا نشهد عمليات جراحية عاديّة، بينما هي أعمال إجراميّة في حقّ الأطفال القصّر، تحدثُ في أماكن سريّة، بعيدا عن أعين الأمن.

الظّاهرة الأسلوبيّة التي تبدو نابية في هذه السرديّة هي ظاهرة تقذير اللّغة، وترذيلها وإشباعها بمفردات نافرة ونابية، تستحضر ما يمجّه الذّوق. نقتطع بعض هذه المفردات التي تكرّرت كثيرا طيلة الرواية، بشكل لافت.

عثر الضابط سليم على حساب في الفيسبوك تحت اسمٍ مستعار: "شورتي سرّ سعادتي". وكان صاحب هذا الحساب ينزّل تدوينات في صفحته بلغة سوقيّة، مثيرة للسخط الاجتماعي، في دلالاتها الأخلاقيّة الفضائحيّة. نقرأ في إحدى هذه التّدوينات قوله: "في أرحامنا نصنعُ الحياة، ومن خصاكم تخرأون الآثام يا شرّ أمّة" (أمل بو شارب، 2021، ص21). في هذه التدوينة مفردات حميميّة وأخرى سوقيّة. فالرحمُ والخصية عضوان تناسليان. أمّا الفعل (تخرأون) فهي لفظة سوقيّة تكشف حالة سقوط لا تنتجها إلا الخطابات الشعبيّة الوضيعة، والتي تعشّشُ فيها الرّذيلة. نعتقدُ أن لغة الخطاب الأدبي بعيدة تتعالى عن هذا المعجم، إذْ أنه توجد بدائل للتعبير عن السّخط الاجتماعي والإدانة السياسيّة، بدل هذه المفردات. واللافت أنّ هذه المفردة تحديدا تتكرر عشرات المرات في الرواية، وقد عنى ذلك الإدانة الشّديدة لواقعٍ منحطّ اجتماعيا وأخلاقيّا. فالواقع المنحطّ لا تعبّرُ عنه إلاّ لغة منحطّة.

وبالعودة إلى الرواية نقرأ حوارا عفويّا بين شخصيّتين شعبيتين، لم يذكر الساردُ اسميهما؛ فهما شخصيتان شعبيتان وكفى. إنّنا نكتفي بالوظيفة الرمزيّة لهذين الشخصيّتين، فقد جيء بهما لتمثيل ثقافة شعبيّة سائدة، وقيم مجتمعيّة أصابها التصدّع. يعكس هذا الحوار تحوّلا دراميّا للأمّة الجزائريّة، هو النّتيجة الحتميّة لأزمات العشريّة المأساويّة، عشريّة تمزّق النّسيج المجتمعي لشعبٍ، كان في الماضي القريب يقدّمُ صورة أسطوريّة لتاريخ ملحمي غنيّ بالبطولات. إنّ تصدّع البنية النّحويّة للغة الحوار بين الشخصيات الاجتماعيّة أريد لها أن تعكس أزمة حادّة في الوعي الحضاري لشعبٍ أضحى مدفوعا بقوى رجعيّة نحو فنائه الروحي والتاريخي. تُذكّرُ الجزائر اليوم بتناقضاتها التي لا تقبل التفاوض، وبأزماتها التي لا شفاء منها، وبأوجاعها التي ردّ لها، بدل أن تُذكرَ بماضيها المجيد وبتاريخها الناصع وبثورتها المشهديّة.

بالعودة إلى النصّ المأخوذ من الرواية، نلاحظ تفشّي مفردات غريبة على معجم الخطاب الأدبي، والروائي بشكل خاص. إنّ لفظة "قلاوي" من الألفاظ الحميميّة، وهي خادشة للحياء، ومسيئة للأدب العام. أمّا جذرها اللّغوي فيعود إلى اللغة التركيّة التي اختلطت بالعربية السليمة. بينما تتردّد في هذا النّصّ بشكل عفوي، تستوي مع مفردات الخطاب اللغوي العادي. بل أكثر من ذلك، فقد ذُكِرتْ هذه المفردة في سياق فكاهي مثير للدّعابة: "شا يديروا بالقلاوي يا خدعتي"؟ إنّ اللهجة العاميّة التي كانت تدير الحوار الأدبي أزالت عن المفردة النابية كلّ ما يحيط بها من غرابة وقذاعة، وحوّلتها إلى لغة مثيرة للضحك. ثمّ إنّ الدّهشة التي اعتلت نبرة العجوز، وفضاعة الخبر المتعلّق بالاختطاف، والموقع الاجتماعي للمتحاورين، كلّ ذلك كان ممّا صرف الانتباه عن نشاز اللفظة، ومخالفتها للذّوق العام. إنّ الحوار الدّائر بين الشخصيّتين يكشفُ عن الموقع الطّبقي للمتحاورين، كما يكشفُ عن الإدانة القويّة لخبر الاختطاف، وفضاعته اللاإنسانيّة. يتعلّق الأمر باختطاف طفل واستلال بعضٍ من أعضائه لأغراض مشبوهة وغامضة. وبسبب ذلك كان الخبر صادما بالنسبة للعجوز التي عبّرت عن صدمتها من هذا الشرّ القادم. تمثّل تلك الشخصيّة ذاكرة المجتمع، وتركيزا لهويّته الحضاريّة، ولقيمه التاريخيّة. وطبيعة الخبر تنتهك هذا الماضي الحضاري الجاثم على وعي العجوز، والذي تنوء الأجيال بحمله.

نتابع استلال أكثر المقاطع السرديّة إثارة للجدل، في هذه السرديّة الإشكاليّة. لقد بدا لي منذ مطلعها أنّ الكاتبة تنوي انتهاك كلّ الطابوهات التي تتحاشاها الثقافة العربيّة العالمة، لما يثيره ذلك من جدل حول مشكلة القيم والهويّة الثقافيّة

للقارئ ولحساسيّته الأخلاقيّة. فالحديث عن الأعضاء التناسليّة بطلاقة واسترسال، في نصّ روائي هو من مقتضيات الكتابة ما بعد الحداثيّة التي تكسرُ كلّ الحدود من أجل الوصول إلى تدميرها، وبيان لاجدواها .

كانت "كايلا" تُعدّ لمقال حول موضوعٍ إشكالي متعلّقٍ بمفهوم القضيب ودوره الاجتماعي، وعلاقته بمقولة الذّكورة، وقد كانت قرأت مقالا لباحثين أمريكيين حول هذا الموضوع. كان ممّا قرأت لهما أنّ "القضبان من الناحية التّشريحيّة يمكن أن تكون موجودة، ولكن بما أنّه كان للنّساء المتحوّلات جنسيّا أيضا قبل الجراحة، قضبان من وجهة نظر التّشريحيّة فإن" القضيب في مقابل الذّكورة لا يمثّلُ سوى بناء غير مترابط (أمل بو شارب، 2021، ص13/12). تُعتبرُ هذه المقولة تقويضا للتمركز الغربي حول القضيب، فدلالته اجتماعيّة أكثر منها تشريحيّة. وقد عنى ذلك أنّ هذا العضو التّشريحي وظيفته اجتماعيّة أكثر منها بيولوجيّة. يترتب عن الذّكورة نظام اجتماعي متمركز حول القضيب ويستمدّ أفضليّته الجنسيّة والاجتماعية على المرأة من هذا العضو الذي تفتقرُ إليه المرأة. ومن هنا، يتحدّثُ فرويد عن عقدة الخصاء التي تعاني منها الأنثى في سنواتها الأولى لمّا تدرك ما يتميّز به عنها الذّكر، وهما يتداعبان معا في سنّ الطّفولة الأولى. إنّ القضيب عضوٌ خارجي، وجوده المادّي بارزٌ، وعندما ينتصبُ في حالة الهيجان، يتعزّز وجوده الفيزيائي، ويتوسّل أنثى يفرغُ فيها فائض القوّة التي أثقلته. ومن هنا، يتّصفُ الذّكر بالإيجابيّة، بينما تُصنَّفُ الأنثى كائنا سلبيّا تتلقّى أسس وجودها الاجتماعي والنفسي عن الذّكر .

يستند المجتمع الذكوري في بنائه الاجتماعي على بنيته الفيزيائيّة، التي تؤهله لوظيفة اقتصادية واجتماعية تفتقر إليها الأنثى، كما يستند إلى القضيب التي يمكنه من أن يكون مبادرا في الفعل الجنسي. كما أن" تقسيم العمل الاجتماعي يستند إلى العاملين سالفي الذّكر. فالقضيب وحده لا يمكنه أن يكونه عاملا حاسما في ابتداع النظام الثقافي الذكوري. ويستدل السارد في الرواية على ذلك بأنّ النساء المتحولات جنسيا كنّ يملكن قضيبا قبل الجراحة.

إنّ طرح مثل هذه الموضوعات في السرد الروائي لم يكن معهودا في الثقافة العربيّة، نظرا لكونه من التابوهات، ولكونه مثيرا للجدل، وصادما للحساسية. من الموضوعات الأكثر إثارة للجدل في المجتمعات المحافظة هو التصريح بالرغبة الجنسية وتسمية الأعضاء التناسليّة والشذوذ الجنسي. وكل هذه الموضوعات انتُهكت حرمتها في رواية الديستوبيا.

لقد أكّدنا في مواطن أخرى عديدة، أنّ مفكّري ما بعد الحداثة أحدثوا بكتاباتهم ثورة على المقدّسات وعلى القيم وأزاحوا الإنسان الذي بوّأته الحداثة الأوروبيّة مركزيّة الكون، عن مركزيّته، وشيّأته، ونمّطته، ليتحوّل هو بدوره إلى سلعة أو إلى شيء من أشياء الحضارة الماديّة. فغدتْ إثر ذلك الأخلاقُ مجرّد مواضعات اجتماعيّة أُنشئت لحفظ مصالح الفئة المهيمنة على الخيرات. لقد تمّ ترحيل مثل هذه التحولات الفكريّة من المركز إلى الهامش من خلال الميديا، ومن خلال وسائل الإعلام، والأدب الروائي المترجم إلى اللغة العربيّة، ومن خلال حركة البشر انفسهم من أوروبا إلى الوطن العربي.

في هذه الرواية نعاين تسليع البشر وتدمير آدميّتهم في رابعة النّهار. وقد تجسّد هذا في ظاهرة اختطاف القصر وبتر أعضائهم التناسليّة، وتجميعها في قارورات، وخلطها بمادّة "الفورمالين"، لتسوّق في النهاية إلى خارج الوطن. لقد كانت الجزائر بلدا مفتوحا، ومنتهك الحدود، الأمر الذي جعل تهريب هذه الأعضاء ممكنا. وقد يكون ذلك بتواطؤ مع بعض وكلاء الاستعمار، الذين يتوسّلون مراكمة المال كيفما كان .

لقد ذُكِرت ظاهرة الخصي المبتورة والمفصولة عن أجساد الأطفال أكثر من عشرِ مرات في الرواية، وهذا ينهض دليلا على تفشي هذه الجريمة بالتزامن مع الحراك السياسي في 2019. غير أنّنا سنكتفي ببعض المشاهد الأكثر بربريّة، ونحاول دراستها من الناحية السرديّة والإيديولوجيّة. ولا يغيبُ عنا، بعد ذلك وقبله، أنّ استئصال أعضاء البشر والمتاجرة بها يعود بنا إلى الشعوب البدائيّة من آكلي لحوم البشر، في أوروبا وأمريكا. وهي ممارسة تحصل اليوم في دول الهامش، بتواطؤ مع منظمات دوليّة سريّة ومشبوهة في توجهاتها. إنّها ظواهر ما بعد حداثيّة، تصلُ بالإنسان إلى مراحل متقدّمة من الوحشيّة المرحّلة من الحضارة الغربيّة إلى أراضي العرب والمسلمين، بفعل عامل المثاقفة .

تتحدّثُ الرواية عن طبيب جزائري جراح، يدعى الدّكتور خوجة. يملك هذا الطبيب قبوا سريّا داخل بيته، خصّصه لتجميع أعضاء الأطفال الجنسيّة، لأهداف غير واضحة. ننقل مقاطع من هذا النص لأهميتها .

نزل بحذرٍ إلى القبو واتّجه يسارا إلى الحجرة الرماديّة، المظلمة التي لم تكن مساحتها تتجاوز خمسة أمتار مربعة، حكّ قدميه على أرضيّتها الاسمنتيّة بحيويّة، محاولا إزالة ما علق بحذائه من طريقه الموحلة في الغابة. كان لا بدّ أن يدخل إلى المكان بكامل أناقته" (أمل بو شارب، 2021، ص15). يقتطعُ الطبيبُ الجراح قبوا سريا داخل بيته من أجل أن يمارس طقوسه البربريّة بعيدا عن اعين الناس. وكان يتردّد على الغابة لاستلام الأعضاء من الأيدي المنفّذة للعمليّة، حيثُ يجدها هنالك في أكياس. وعندما يعود إلى بيته كان يحرصُ على إزالة أثر الوحل الذي يعلق بالحذاء وهو بداخل الغابة. نحن إذا مع إخراج سينمائي لفيلم بوليسي، حيثُ يحرصُ المجرم على محو آثار الجريمة. ويشعرُ بحيويّة من ينجو من المطاردة، ويفلتُ من المراقبة. وعندما يلفي نفسه بكامل أناقته، يدخل القبو المظلم ليودع الأعضاء التي جلبها في مكانها المحفوظ، في انتظار أن تُرحّلَ عبر قنوات مجهولة .

سنتابع الجراح وهو بداخل القبو السري، ونعاين حركاته المنتشية. "أخذ نفسا عميقا وهو يستعدّ لطقسٍ يوميّ بدأه منذ شهرين وسبعة عشر يوما بالتّحديد؛ أخذ نفسا طويلا وهو يتجاوز المدخل دون أن يبالي بالرائحة التي كانت تنبعثُ من المكان المصمم على شكل مكعبٍ؛ (.....) تناول العلبة بعناية وتلصّص على ذلك العضو مثلث الأضلاع الذي بدأت علامات التعفّن تتشكّلُ عليه لولا غمسه في آخر لحظة في محلول الفورمالين، تنهّد بشيء من الأسف، دكّ سبابته للمرّة الألف في تجويف ذلك الرحم وحاول تحسّس أضلاعه الثلاثة قدر مان كان يسمح به ثخن إصبعه" (أمل بو شارب، 2021، ص16/15). م يلاحظ على سلوك هذا الطّبيب أنّه فاقدٌ للمشاعر الإنسانيّة، وأنّه قد تعوّد على التّعامل مع الأعضاء التناسليّة للبشر، دون أن يثير ذلك فيه أيّة عاطفة، واشمئزاز، وكأنه يتعامل مع أشياء ماديّة فقدت قيمتها، ويحاول أن يعيد تثمينها .

لقد بدا أنّه يعاين عضوا تناسليّا لأنثى، ويُدخلُ سبابته في تجويف الرحم، من أجل تقدير أبعاده، أو ربّما من أجل حدس سنّ الضحيّة. ومهما يكن، فنحن أمام ممارسات تبدو وكأنها خياليّة، لا تحصل في مملكة البشر. إنها تحصل في بلدٍ عربيّ كان إلى وقت قريبٍ محافظا على هويته، أبعد ما يكون عن التيارات الفكريّة المتطرفة التي دخلت من بوابة الاستعمار والامبرياليّة العالميّة، والمنظمات الماسونيّة السريّة.

بعد أن عاين الطبيب الرحم مرّ إلى كيسٍ آخر، ورمى به خصية كانت معه، وهي حصادُ يومه ذاك. "دكّ يده في جيبه وأخرج منه كيسا بلاستيكيّا ورديّا تناول منه الخصية الواحدة والثلاثين دون احتفاء وألقاها في قعر السطل، مع البقيّة. لقد قارب على الانتهاء" (أمل بو شارب، 2021، ص16) بدأ الطبيب مهمته هذه منذ أزيد من شهرين، وقد جمّع أزيد من ثلاثين خصية، كلّ واحدة منها تعود إلى طفلٍ أُقْتُلِع من أسرته واقتيد إلى الغابة واستُؤصلتْ أعضاؤه الجنسيّة. وعادة ما يموت الطفل إثر هذه العمليّة، وترمى جثته في مكانٍ بعيد عن موقع الجريمة. لا تفضي تحقيقات الأمن عن شيء في العادة، إلاّ ما ندر، حيثُ يُلقى القبض على الجناة قبل تغييب الضحيّة.

إننا استللنا مقطعا سرديا واحدا، بدا لنا أنه كافٍ لتمثيلِ المشهد الإنساني البائس في الجزائر، ذلك الذي اقترن مع الحراك السياسي. يبدو واضحا أنّ ذاك الحراك قد أعان على بروز ثم استفحال هذه الظاهرة. كما بدا أن الشخصيّات الروائيّة التي كانت تتردّد على سوريا والجزائر وأمريكا كانت ضليعة في هذه الظاهرة. فالطبيب الجراح على علاقة مع "ياسمين"، وكايلا، التي قدمت إلى الجزائر واتصلت بالعائلة، من أجل إجراء تحقيق سريّ حول "فاتح" والد "زين الدّين" و"ياسمين." وقد كان إرهابيا متورطا في النشاط الإسلامي مع إحدى الجماعات المسلّحة، ثمّ تمّ تغييبه، وتغييب ملامحه في البنية السرديّة ومخرجاتها. الأمر الآخر المريب في هذه الظاهرة، هي اقترانها بنشاط تبشيري وسري، لافت. وهو ما يثبتُ أنّ الحراك السياسي ليس سلوكا محايدا ولا معزولا عن مسألة اختطاف الأطفال وبتر أعضائهم التناسليّة، وتهريبها إلى أماكن مجهولة.

توجد مؤشّرات عديدة على انهيار مجتمع القيم في الجزائر بسبب استفحال التناقضات الإيديولوجيّة والطّبقيّة. "تُوَلِّدُ عملية تفكك مجتمع عادة كمّا هائلا من العنف والتدميرية داخل المجتمع الذي يتفكك. ويمكن النظر إلى العنف المتزايد في الوقت الحاضر كمؤشر إلى نزاعات التفكّك داخل المجتمع التكنولوجي" (إيريش فروم، 2013، ص49)********

الخاتمة:

عرف القرن الواحد والعشرون تحولات عميقة في الكتابة الرواية، تبعا للتحولات التي جاءت بها ما بعد الحداثة، مستفيدة من تفكيكيّة جاك ديريدا، وممّا بعد بنيويّة ميشال فوكو، ومن عدميّة فريديريك نيتشة. وتبعا لكون الرواية أضحت جنسا أدبيّا مهيمنا، ليس فقط في الغرب، ولكن أيضا في الوطن العربي، فقد انعكست تلك التحولات الفكريّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة على السّرد الروائي وكيّفته وفق القناعات الفلسفيّة الجديدة، وقد أحدث ذلك تحوّلات عميقة على جماليّات الكتابة الروائيّة، في الصورة التّمثيليّة واللغة الروائيّة والتّخييل والتّمثيل. فظهر أدب الكيتش، والديستوبيا، والرواية البوليسية المثيرة للرعب. وقد أثّر ذلك على جماليات السرد الروائي والقصصي وعلى الإنتاج الدرامي. لقد انعكست فضاعة العصر على الثقافة، وتكت بصمتها على مستوى الحبكة السرديّة وعلى مستوى الانتقاء المعجمي.

على صعيد الكلمة الروائيّة، شاعت اللّغة العاميّة، والمفردات السوقيّة المبتذلة، والخادشة للحياء. وقد شكّلت تلك اللغة النوعيّة الممجوجة خطاب إدانة لواقعٍ منحطّ، يخلو من الفضيلة ومن العدالة الاجتماعيّة ومن العطف الديمقراطي. إذْ كثيرا ما يربطُ النقّادُ بين اللغة والواقع الذي تمثّله، من خلال الرّمز .

وعلى صعيد التّمثيل فقد كانت تلك الجثث الممزقة والأعضاء التناسليّة المبتورة عن أصحابها، والخصي المجمّعة في قوارير، كان كلّ ذلك تمثيلا لتشيء الإنسان ولتحوّله إلى سلعة أحيانا، وإلى موضوع أبحاث مخبريّة تُدرس فيها الأعضاء التناسليّة كما تُدرس المادّة، وتُشرّحُ على طاولة العمليات الجراحيّة كما تشرّح جثث الحيوانات من أجل دراستها أحيانا أخرى .

اتّسعت هذه الرواية لكثيرٍ من نقد الهيمنة الذّكوريّة. فالقهر الذي تعرّضتْ له كلّ من "ياسمين" وزوجة الضابط سليم، هو إدانة شديدة لذكوريّة المجتمع الجزائري واحتقاره لآدميّة المرأة ولكرامتها. إنّها مستثناة من عصر الحريّة والثقافة والشغل، إذْ لا يُسمحُ لها بالمشاركة في النّشاط السياسي، كما لا يُسمحُ لها بالظّهور في وسائل الإعلام المرئيّة والمسموعة. فقد أدان الضابط سليم زوجته عندما أنشأت حسابا سريّا في مواقع التواصل الاجتماعي، وظلّ يتابع تدويناتها ومكالماتها وينتفض في وجهها عنفا متوحشا إذا ما شاهد أمرا مشبوها.

المصادر:

أمل بوشارب، 2021، في البدء كانت الكلمة، مطبعة الشهاب، الجزائر .

القرآن الكريم.

المراجع.:

1-سعد البازغي، ميجان الرويلي، 2002، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء .

روبرت يانج، أساطير بيضاء.

2-صبحي البستاني، اليوتوبيا والدّستوبيا، وتخطّي الحدود الزمنيّة في الرواية العربية الحديثة، روايتا يوتوبيا لأحمد خالد توفيق، وعطارد لمحمد ربيع، أنموذجا، مجلة دراسات في السردانية العربية، المجلد الثاني العدد الرابع، 2021، كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة بجامعة الخوارزمي والجمعيّة العلميّة الإيرانيّة للّغة العربيّة وآدابها.

3--جاكوبي راسل، 2001، نهاية اليوتوبيا، (السياسة والثقافة في زمن اللامبالاة)، ترجمة فاروق عبد القادر، الكويت، عالم المعرفة، العدد 269.5.

4-روبرت يونج، 2003، أساطير بيضاء، ترجمة جابر عصفور، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة.

5-سلمي أبو زيد شتا العشري، 2020، حول مفهوم اليوتوبيا والديستوبيا، كمدخل للاستلهام في فن التصوير المعاصر، مجلة بحوث في التربية والفنون، المجلد 21، العدد 1. جامعة حلوان، مصر.

6-إبراهيم بوخالفة، 2021، التابع يتكلم، Edition Itinéraire scientifique، الجزائر.

7-إيريش فروم، 2013، كينونة الإنسان، ترجمة محمد حبيب، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا.